تفسير ابن كثير

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول ا صلى ا عليه وسلّم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب Bه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء ا تعالى فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل ا D هذه السورة من أمره وأمرهم وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه كما روى ابن مسعود Bه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر Bه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبة وقال البخاري : حدثنا عبيد ا بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء Bه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك رسول ا صلى ا عليه وسلّم فأتانا فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نوح حدثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب Bه قال : كنا مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم في سفر قال : فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي قال فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت كررت على رسول ا صلى ا عليه وسلّم ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء قال : فإذا أنا بمناد يا عمر قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال : فقال النبي صلى ا عليه وسلّم [نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها { إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك ا ما تقدم من ذنبك وما تأخر }] ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك C وقال علي بن المديني هذا إسناد مدني جيد لم نجده إلا عندهم وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك Bه قال : نزلت على النبي صلى ا عليه وسلّم { ليغفر لك ا ما تقدم من ذنبك وما تأخر } مرجعه من الحديبية قال النبي صلى ا عليه وسلّم : [لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض] ثم قرأها عليهم النبي صلى ا عليه وسلّم فقالوا : هنيئا مريئا يا نبي ا لقد بين ا D ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه صلى ا عليه

وسلّم { ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند ا فوزا عظيما } أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا مجمع بن يعقوب قال : سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن حارثة الأنصاري Bه وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلي رسول ا صلى ا عليه وسلّم فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول ا صلى ا عليه وسلّم على راحلته عند كراع الغميم فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم { إنا فتحنا لك فتحا مبينا } قال : فقال : رجل من أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلّم أي رسول ا أو فتح هو ؟ قال صلى ا عليه وسلّم : [إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح] فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية فقسمها رسول ا A ثمانية عشر سهما وكان الجيش ألفا وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس أعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهما ورواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى عن مجمع بن يعقوب به .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد ا بن بزيع حدثنا أبو بحر حدثنا شعبة حدثنا جامع بن شداد عن عبدالرحمن بن أبي علقمة قال : سمعت عبد ا بن مسعود Bه يقول : لما أقبلنا من الحديبية عرسنا فنمنا فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت فاستيقظنا ورسول ا A نائم قال : فقلنا أيقظوه فاستيقظ رسول ا A فقال : [افعلوا ما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي] قال : وفقدنا ناقة رسول ا A فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة فأتيته بها فركبها فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي قال : وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه { إنا فتحنا لك فتحا مبينا } وقد رواه أحمد وأبو داود والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي A يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال A [أفلا أكون عبدا شكورا ؟] أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر عن ابن قسيط عن ابن عروة بن الزبير عن عائشة Bها قالت : كان رسول ا A إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه فقالت له عائشة Bها : يا رسول ا A أتصنع هذا وقد غفر ا لك ما تقدم لك من ذنبك وما تأخر ؟ فقال A : [يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا] أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد ا بن وهب به وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد ا بن عوف الخراز وكان ثقة بمكة حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر عن قتادة عن أنس قال قام رسول ا A حتى تورمت

قدماه ـ أو قال ساقاه ـ فقيل له أليس قد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : [أفلا أكون عبدا شكورا] غريب من هذا الوجه فقوله : { إنا فتحنا لك فتحا مبينا } أي بينا وظاهرا والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله تعالى : { ليغفر لك ا ما تقدم من ذنبك وما تأخر } هذا من خصائصه A التي لا يشاركه فيها غيره وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهذا فيه تشريف عظيم لرسول ا A وهو A في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الاخرين وهو A أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والاخرة ولما كان أطوع خلق ا تعالى وأشدهم تعظيما لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة : [حبسها حابس الفيل] ثم قال A : [والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئا يعظمون به حرمات ا إلا أجبتهم إليها] فلما أطاع ا في ذلك وأجاب إلى الصلح قال ا تعالى له : { إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك ا ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك } أي في الدنيا والاخرة { ويهديك صراطا مستقيما } أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم { وينصرك ا نصرا عزيزا } أي بسبب خضوعك لأمر ا D يرفعك ا وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح [وما زاد ا عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد D إلا رفعه ا تعالى] وعن عمر بن الخطاب Bه أنه قال : ما عاقبت أحدا عصى ا تعالى فيك بمثل أن تطيع ا تبارك وتعالى فيه